

مفهوم " النظرية " والمفاهيم ذات الحقل الدلالي المشترك : المدخل ، المقاربة ، النموذج .

د. عيسى بوعافية

قسم الدعوة والإعلام والاتصال

مخبر الدراسات الدعوية والاتصالية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

ندوة : " توظيف النظرية في بحوث الإعلام والاتصال "

تمهيد :

يعتبر ضبط المفاهيم أحد أهم المراحل ، وأكثرها حسما في البحث العلمي ، إنها ضرورة معرفية ، وضرورة منهجية أيضا ، ذلك أن المفاهيم ليست مجرد كلمات تفسر بمرادفاتهما ، أو ما يقارنها من معنى ، بل هي مستودعات كبرى لمعاني ودلالات تتجاوز غالبا البناء اللفظي لتعكس كوامن فلسفية ، وتراكمات فكرية ومعرفية¹ ، فإذا أضيف إلى ذلك بعد الترجمة من لغة إلى لغة ، وما يرتبط به من تداعيات على المعنى ، واختلاف التخصصات العلمية ؛ ازدادت الشقة اتساعا والدلالات غموضا أو تداخلا ، ولا يخفى أثر ذلك كله على منطلقات البحث ومركزاته بله دقة نتائجه وقيمتها العلمية .

ومن أهم المفاهيم تداولها في حقل البحث العلمي عموما ، وفي حقل بحوث الإعلام والاتصال خصوصا ؛ مفهوم " النظرية " الذي تحاول هذه الورقة البحثية تسليط الضوء عليه وعلى المفاهيم التي تنتمي إلى الحقل الدلالي المشترك أو المتداخل معه ، وبطبيعة الحال ؛ سيتم التركيز على

¹ - علي جمعة محمد وآخرون : بناء المفاهيم : دراسة معرفية ونماذج تطبيقية ، القاهرة ، دار السلام ، ط 1 ، 2008 م

مفهوم " النظرية " لارتباطه الوثيق بموضوع الندوة دون التوسع في ذكر الفروق بينه وبين غيره من تلك المفاهيم حسبما يتسع له وقت المداخلة .

1- مفهوم النظرية :

من الناحية اللغوية : اسم مؤنث منسوب إلى النظر ، والنظر يطلق في لغة العرب على ثلاثة معاني : المشاهدة البصرية ، والانتظار ، والتأمل والتفكير والتدبر في عواقب الأمور وحقائقها¹ ، وهذا المعنى هو أقرب إلى ما نحن بصددده ، لا سيما وأن اسم النظري قد أطلق على ما يحتاج في تصديقه إلى الدليل والبرهان ، وقد جعلوه في مقابل الضروري الذي لا يحتاج إلى ذلك² .

أما اصطلاحاً : فقد عرفت النظرية تعريفات عديدة ؛ نذكر منها على سبيل المثال :

- ما جاء في موسوعة لالاند الفلسفية ؛ أن النظرية هي : " تصور منهجي ، منظم نسقياً ، ومرتبطة من ثم في صورته ببعض القرارات أو المواضع العلمية التي لا تنتمي إلى المعنى العام"³ ، وهو مفهوم يقابل المعرفة العامة .
- وما جاء في المعجم الفلسفي ، من تعريفها بأنها : " تركيب عقلي واسع ، يهدف إلى تفسير عدد كبير من الظواهر ، ويقبله أكثر العلماء في وقته من جهة ما هو فرضية قريبة من الحقيقة"⁴ ، وهو مفهوم يقابل الحقيقة العلمية الجزئية .
- ومنهم من يعرفها على أنها : إطار فكري ، يشكل رؤية منظمة في نسق علمي مترابط للظواهر عن طريق تحديد العلاقة بين المتغيرات الداخلة فيها بهدف تفسير هذه الظواهر أو التنبؤ بها⁵ .

¹ - مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، القاهرة ، مكتبة الشروق الدولية ، ط 4 ، 2004 م ، ص 931 ، 932 .

² - محمد بن علي الشوكاني : إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، تح : أبي حفص سامي بن العربي الأثري ، الرياض ، دار الفضيلة ، ط 1 ، 2000 م ، ج 1 ، ص 65 .

³ - أندريه لالاند : معجم مصطلحات الفلسفة التقنية والنقدية ، تعريب : خليل أحمد خليل ، بيروت ، منشورات عويدات ، ط 2 ، 2001 م ، ج 3 ، ص 1454 .

⁴ - جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ط 1 ، 1982 م ، ج 2 ، ص 478 .

⁵ - بركات عبد العزيز : مناهج البحث الإعلامي ، القاهرة ، دار الكتاب الحديث ، ط 2 ، 2015 م ، ص 27 .

- وهناك من يعرفها على أنها : " تفسير مؤقت لمجموعة من الظواهر الواقعية ، وتدرج من حيث الشمولية من تفسير عدد قليل من الظواهر إلى تفسير عدد كبير من الظواهر . بعبارة أخرى هي صياغة مؤقتة لقانون طبيعي محتمل ، لم تصل إلى مرحلة الاستقرار . فالنظرية لا تزال موضع اختبار ، ولكنها أكثر رسوخا من الفرضية لأنها اجتازت الاختبار مرة أو مرات متعددة وربما فشلت في أخرى قليلة " ¹ .

وعليه يمكن أن نلخص أهم خصائص مفهوم " النظرية " فيما يلي :

أولا - أنها تتعلق بالجانب الفكري المستند إلى الخبرات والتجارب العلمية .

ثانيا - أنها منظمة في نسق معرفي مترابط .

ثالثا - أنها تستوعب أهم مهام البحث العلمي المتمثلة في : الوصف والتفسير والتنبؤ ² للظواهر المختلفة .

رابعا- أنها لم تبلغ درجة القوانين الثابتة ، بل تظل فرضا واسعا ، ولذلك تسمح للباحث بأن ينطلق منها لفهم ووضع صياغات جديدة وتفسيرات أكثر عمومية وعمقا ³ للظواهر المدروسة .

2- بعض المفاهيم ذات الحقل الدلالي المشترك أو المتداخل :

هناك العديد من المفاهيم متقاربة مع مفهوم " النظرية " في معناه العام ، في اللغات الغربية والعربية ، رغم أنها قد تختلف عن بعضها البعض في مدلولاتها الضيقة ، ومع ذلك فهي تغطي مساحة مشتركة في حقل دلالي واسع ، قد يصل إلى حد التداخل في خلد الكثير من الباحثين ؛ نذكر منها ⁴ :

¹ - سعيد إسماعيل صيني : قواعد أساسية في البحث العلمي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط 1 ، 1994 م ، ص 53 .

² - صلاح قنصوه : فلسفة العلم ، القاهرة ، دار التنوير ، ط 1 ، 2008 م ، ص 188 .

³ - موريس أنجرس : منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية : تدريبات عملية ، تر : مصطفى ماضي وآخرون ، الجزائر ، دار القصة للنشر ، ط 1 ، 2004 م ، ص 55 .

⁴ - عبد الوهاب المسيري : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، القاهرة ، دار الشروق ، ط 1 ، 1999 م ، ج 1 ،

في اللغات الغربية (الإنجليزية خصوصا) : Model ، Type ، Structure ، Pattern ، Hypothesis ، Configuration ، Paradigm ، Ideal Type ، Constructive Type ، System ، Perspective ، Framework ، General Law ...

وفي اللغة العربية : النموذج ، النسق ، الفرض أو الفرضية ، المنظور ، الرؤية ، المدخل ، المقاربة ، الإطار ، المنطلق ، المرجعية ، ...

وهنا يجدر بنا أن نلفت النظر إلى أثر البيئة الثقافية اللغوية على هذه المفاهيم ، فبين المدرستين الإنجلوسكسونية والفرنكوفونية بون شاسع في التعاطي مع هذه المفاهيم ومع غيرها ، ففي حين تهتم مدرسة بالفروقات المعنوية بين تلك المفاهيم ، تركز الأخرى على الجانب العملي الإجرائي دون النظر إلى التفاريق والحدود الفاصلة !

ومما لاشك فيه فقد انعكس ذلك على مدارسنا العربية ؛ فبين المدرسة المشرقية والمدرسة المغاربية الاختلاف نفسه بين المدرستين الإنجلوسكسونية والفرنكوفونية ، من حيث كونهما تبع لهما !

وعليه ؛ فسوف أكتفي هنا بتعريف أشهر المفاهيم ذات الحقل الدلالي المشترك لمفهوم " النظرية " ؛ وهي :

النموذج :

لغة : كلمة معربة ، من كلمة " نموده " الفارسية ، وتعني مثال الشيء الذي يُعمل عليه¹ .

أما اصطلاحا ؛ فهو " محاولة لتقديم العلاقات الكامنة التي يفترض وجودها بين المتغيرات التي تصنع حدثا أو نظاما معيناً ، في شكل رمزي "² ، وفي بعض الأحيان يستخدم النموذج كمرادف للنظرية .

إلا أن المتأمل يلمس فرقا واضحا وهو أن النموذج عبارة عن أداة تعبيرية عن النظرية ؛ باعتبار أنه رسم مبسط لها يتيح صياغة أفكارها المجردة ، ويحدث التكامل بينها وبين البحث

¹ - الفيومي : المصباح المنير ، القاهرة ، دار الحديث ، ط 1 ، 2008 م ، ص 391 .

² - جيهان أحمد رشتي : الأسس العلمية لنظريات الإعلام ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ص 70 .

الإمبريقي¹ .

المدخل : على وزن مفعّل ، مصدر ميمي يدل على الحدث (الدخول) ، الذات (المدخول) وغاية الحسن في الأمر² ، وعليه يكون المعنى : أحسن مكان للدخول .

أما اصطلاحاً ؛ فهو الأسس والمنطلقات الفكرية التي يستند إليها الباحث ابتداءً في تناوله لموضوع بحثه ، ومن أهم أنواعه : المدخل التكويني ، الوظيفي ، البنائي ، النسقي ، الجدلي ، التنظيمي ، الإيكولوجي ، التفاعلي الرمزي ، الفينومولوجي ، الإثنوميثولوجي .

المقاربة :

لغة : على وزن مُفَاعَلَة من القرب ، وتدل هذه الصيغة على التكثير ، أي أن يكون القرب أكثر .

أما اصطلاحاً فقد عرفها موريس أنجرس على أنها : " طريقة خاصة غير تقليدية في استعمال النظرية³ " ، بمعنى أنها " موقف ينطوي على المرونة والحذر ، ولا يتطلب المراحل النظامية المرئية للتقنية ، ولا دقة مفهوم المنهج⁴ .

الإطار :

لغة : ما أحاط بالشيء⁵ ، أي حده من جميع الجهات .

أما اصطلاحاً ؛ فهو : " مجموعة موجّهات خاصة بتخطيط البحث⁶ " ، إنه بناء منظم من الأفكار والمفاهيم يحدد الممارسات الخاصة بالبحث ، أي أنه يرسم الحدود للبحث . وفي تقديري كل هذه المفاهيم تختلف اختلافاً كبيراً عن مفهوم " النظرية " ، وإن اعتبرها البعض مرادفة ، وأعتقد أننا أحوج ما نكون اليوم إلى ضبط هذه المفاهيم وغيرها ، وفق

1 - بركات عبد العزيز : مرجع سابق ، ص 29 .

2 - فاضل صالح السامرائي : معاني الأبنية في العربية ، عمان ، الأردن ، دار عمار ، ط 2 ، 2007 م ، ص ص 31 ، 32 .

3 - موريس أنجرس : مرجع سابق ، ص 461 .

4 - مادلين غراويتز : منطق البحث في العلوم الاجتماعية ، تر : سام عمار ، دمشق ، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر ، ط 1 ، 1993 م ، ص 12 .

5 - الفيومي : مرجع سابق ، ص 16 .

6 - موريس أنجرس : المرجع السابق ، ص 461 .

ما تضبطه قواعد لغتنا ، وما يتلاءم مع بيئتنا الثقافية ، والله ولي التوفيق .